"حبيبتي ابنتي... سميتها... مريم"

بثينة خليفة قاسم

كم من أب ترك أبناءه وبناته الذين ولدوا كاملين أصحاء فتحطموا وضاعوا، سعيًا وراء مال أو شهوة أو حتى سعيًا للنجاح الشخصي في شأن من الشؤون، وكم من أم ضحت بأولادها وتركت بيتها؛ لأنها ليست على استعداد للتضحية من أجل غيرها فساهمت في ضياع أبنائها؟ وكم من أب بيولوجي يقضي حياته مثل البنك بالنسبة لأولاده الذين أنجبهم، كل مهمته أن يمنحهم المال دون أن يعرف لنفسه أي دور تربوي أو تقويمي، ويتركهم يخوضون الحياة دون رصيد أخلاقي أو ثقافي فيكونوا كالريشة في مهب الريح؟

وكم من أم بيولوجية لا تمارس شيئا سوى الذهاب إلى الجيم أو إلى حلاق النساء، وتتابع أخبار الموضة، وتمارس دور السمسار بين زوجها وأبنائها، فتأخذ منه المال بحساب وبغير حساب، وتعطيه لهم دون أن تعرف شيئا عن حياتهم اليومية فينحرفوا ويضيعوا؟

وكم مليونًا من الشباب أصبح أباهم الذي يتحاورون معه ويتعلمون منه هو "الفيس بوك"؟ أما الأب القديم فقد انتهى ودخل في متحف التاريخ، وحلّ محله الأب البيولوجي أو الأب البنك.

أما الأب الذين نتحدث عنه في هذه المساحة فهو أب فوق العادة؛ لأنه أعطى للأبوة تعريفًا ومفهومًا لم تعرفه البشرية من قبل، لأن قصته كأب ليس لها مثيل إلا في كتب الأدب اليوناني.

أما في الحياة فلم أعرف أنا قصة مثلها، فقد مررت في الحياة بأناس قاموا بمعجزات في مجال الطب، وفي مجال الكيمياء، وفي مجال الفضاء، وفي مجال الرياضة، وفي غيرها من المجالات،ولكنني لم أمر بإنسان يصل إلى حد العظمة والإعجاز في مجال الأبوة والتربية والتضحية من أجل الأبناء.

أما الأم التي نتحدث عنها فهي نموذج غير مألوف في حياة البشر، فهي ينبوع حنان وتضحية رائع ونموذج للأم الحقيقية التي تضحي بأشياء كثيرة من أجل أبنائها.

الأب هو فؤاد شهاب الذي أثر في كل بحريني وبحرينية؛ بسبب عطائه الذي أصبح نادرًا في عالم الماديات الذي خلا من التضحيات الكبيرة، وقصته مع ابنته التي ولدت صماء كآلاف الأطفال الذين يقضون حياتهم صمًا بكمًا لا يتكلمون.

وإن أقصى ما يناله مثل هؤلاء الأطفال من آبائهم وأمهاتهم ومجتمعهم هو العطف والتعاطف غير المنتج أو غير الإيجابي –إن صح هذا التعبير– ومساعدتهم على خوض الحياة بما هم عليه من عجز وإعاقة، دون سعي حقيقي لعلاجهم وتحويلهم إلى أشخاص أصحاء يتمتعون ويستخدمون كل حواسهم كغيرهم من الناس.

ولكن شهاب كان إنسانًا آخرًا، وكانت زوجته هي الأخرى أمًا استثنائية؛ لأنهما قاما بكسر هذه القاعدة، وصنعا شيئًا لم يصنعه غيرهما من الناس تجاه هذه الابنة، فكرّسا حياتهما من أجل علاجها وتعليمها.

ومن خلال كتابه "ابنتي حبيبتي سميتها مريم"، يحكي لنا شهاب بأسلوب أدبي ممتع قصته مع زوجته وابنته مريم، وهي قصة حب ثلاثية، كما وصفها في كتابة الممتع، على عكس قصص الحب التي عرفها التاريخ الإنساني، والتي يكون لها طرفان فقط.

ويقول من قدّم لهذا الكتاب، بأسلوب أدبي رفيع، إن هذا الكتاب يسرد واقعًا تاريخيًا بحق، ويدخل القارئ العربي بأحداثه في عالم يتسامى بإنسانيته.

إنها قصة حب من نوع فريد، قصة حب شاء لي القدر أن أعيش فصولها مع أبطاله بكثير من الانفعال العاطفي، ودفق عفوي للمشاعر الفياضة نحو أبطال لازمتهم في لحظات عاشوها ممتلئين بالأمل وسط خضم من اليأس، ممتلئين بالحماسة إلى حد التهور على رغم عوامل الإحباط، ولأن القصة حقيقية فهي تدخل التاريخ من أوسع أبوابه، فقد كان أفضل أسلوب لسردها هو أسلوب السيرة الذاتية التي يكون بطل القصة الذي لا يختبئ وراء أقنعة كما يحدث في جميع أنواع السرد.

وهكذا انطلق المؤلف شهاب يحكي لنا قصة الحب الثلاثية كما يصفها، والتي تتحدث عن ثالوث من الأحبة، وذلك الثالوث المتحاب المتكرر في حياتنا، على رغم أننا لا نلتفت إليه على أية حال، وهو الحب الأسري "الأب، الأم، الأبناء"، والذي كما قال عنه بديهة من البديهيات التي اعتدنا ألا نراها إلا عندما تختل وتضطرب.

ويصف المؤلف هذا النوع البديهي من الحب وصفا رائعًا ودقيقًا، ويقول إن المألوف في الثالوث الأسري المتحاب برود الانفعالات من طرف، وسخونتها من طرف آخر، بمعنى أن الحب بكمه وكيفه قد يكون ضعيفًا في تجاه، وقوي في تجاه آخر.

إن قصة الحب التي يقدم لها المؤلف في هذا الكتاب تنطوي على شرطين مهمين، هما المشقة الفائقة والمغامرة الخطرة التي تشيدت منها قصة الحب الشهابي المثلث الأطراف، أسرة سعيدة تتلذذ بممارسة الحياة ممارسة مضنية تتسم بالمشقة والمغامرة، والمخاوف الغامرة التي تذوب في رجاء وأمل.

والذي يتابع قصة شهاب وزوجته نادية وابنته مريم يعرف أن هذه اللغة الأدبية

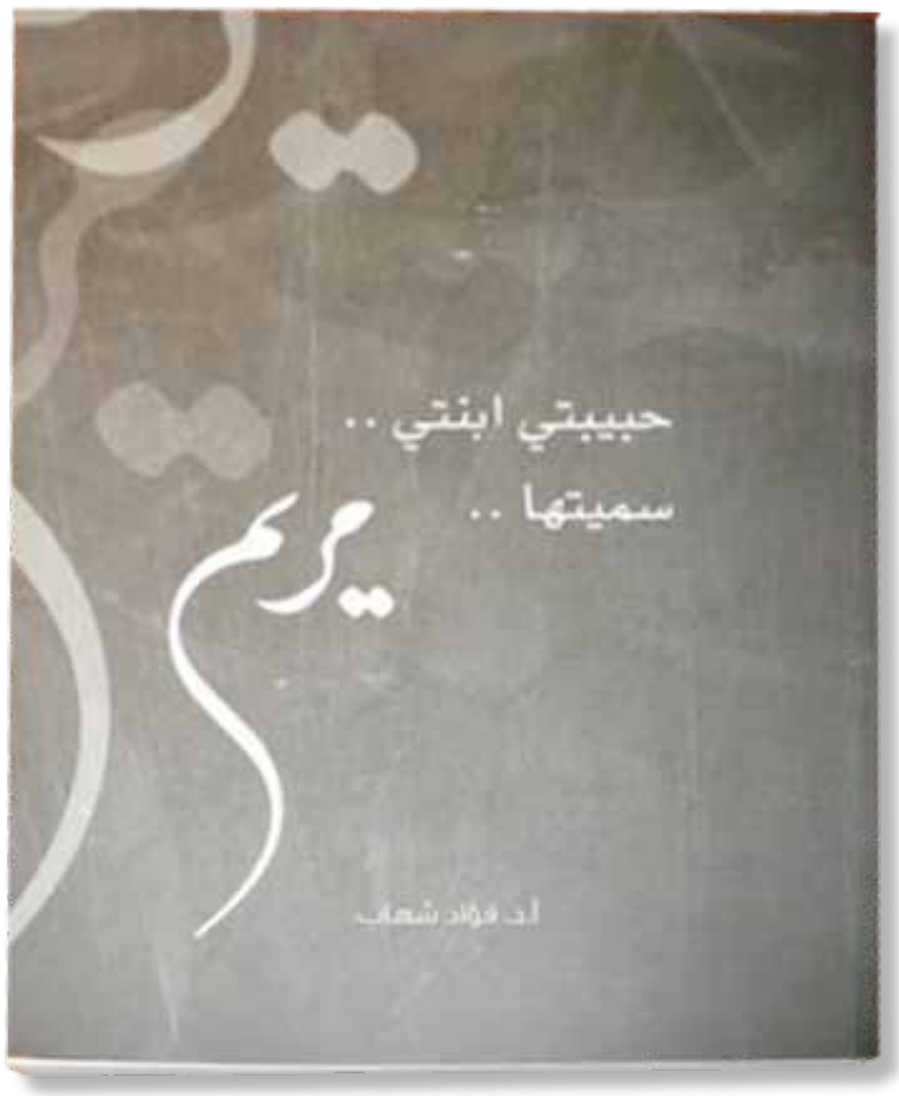

الرفيعة التي استخدمت في سرد القصة أو التعليق عليها من الأحبة ليست سوى تعبيرًا صادقًا وحقيقيًا عن تفاصيل رحلة حياة هذه الأسرة ومعاناتها الطويلة، وانتصارها في نهاية المطاف على رغم الصعوبات والاحباطات التي واجهتها.

أسرة تضم ثلاثة، وهم: فؤاد وزوجته نادية وابنتهما مريم، أسرة سعيدة تجد نفسها فجأة في مأزق متعدد الوجوه، فقد تأخرت مريم عن النطق على الرغم من أنها تجاوزت التسعة عشر شهرًا من عمرها، فتلاشت السعادة الأسرية مع مرور الزمن وإلحاح المجتمع المحيط لمعرفة السبب.

وكالعادة، كان ولابد من اللجوء إلى الأطباء في وقت كان العالم العربي فيه لا يزال يحبو في هذا الفرع من فروع الطب، وهو السمع والنطق الخاص بالأطفال في هذه السن.

واحتاج الأطباء إلى أشهر طويلة لكي يقرروا أن مريم ولدت صماء، وكان ذلك صدمة للوالدين في ذلك المجتمع الذي لا يفرق بين الصمم وبين التخلّف العقلي والخواء الذهني.

ولكن رغم سخرية المجتمع من إصرارهما على فعل شيء من أجل ابنتهما، إلا أن الوالدين الحنونين لم يزدادا إلا إصرارًا على علاجها مهما اقتضى الأمر من تضحيات.

لم يستمع فؤاد ونادية لتوجيهات وأحكام مجتمع دأب على تدمير المئات وربما الآلاف من أمثال مريم، رفضا أن يودعا ابنتهما أحد المعاهد أو المراكز الخيرية التي ترعى المتخلفين عقليًا،

وواجه الوالدان كل جيوش التخلف والجهل المسلحة بذخائر ثقافية طالما أدت إلى تخلفنا، وتمكنا من إثبات حقيقة مهمة، وهي أن أزمة كل فرد هي في الحقيقة أزمة مجتمعية، وأن الأفراد لو طبقوا ما توصلوا إليه من حلول لأزماتهم الفردية على مجتمعهم لخرجت مجتمعاتنا من ظلمات الجهل إلى العلم والتحضر.

ذكاء مريم فوق العادة:

أصمّ الوالدان آذانهما أمام ضلالات وخزعبلات المجتمع، وقاما برحلة إلى لندن برعاية رجل الأعمال المصري محمد الفايد؛ ليعرضا مريم على طبيب إنجليزي كبير بتوصية من الفايد لقياس ذكاء مريم، فإذا بالطبيب يقرر أن ذكاء مريم فوق المعتاد، وبالتالي فتح باب الأمل واسعًا أمام هذه الأسرة، وثبتها أكثر وأكثر على طريق كفاحها، وأبطل نظريات التخلف والجهالة التي أضاعت المئات وربما الآلاف من قبل مريم ومن بعدها.

في القاهرة

وخلال رحلة بحث الأسرة عن برامج مختصة بالتكلم عند أصحاب الإعاقة السمعية، وقع اختيار الوالدين على القاهرة التي تتوفر بها معاهد للتكلم.

وبدأت الرحلة الشاقة في حياة هذه الأسرة الشهابية بغربة الأم التي كانت في تلك اللحظة قد أصبحت أما لطفل آخر (صالح)، لترعى في غربتها طفلين، رعاية غير عادية لمريم، ورعاية شاقة لصالح.

وكان على الأب أن يقوم برحلات مكوكية إلى القاهرة كل أسبوعين، بما يتضمنه ذلك من أعباء مادية ومعنوية، وعذابات الفراق ليطمئن على أسرته في القاهرة، ثم يعود مجددا إلى وحدته في البحرين.

وكان على نادية أن تصحب مريم إلى المعهد الذي التحقت به كل صباح، ثم تعود في نهاية اليوم الدراسي لتصطحبها إلى البيت، ثم تصطحبها مرة أخرى إلى طبيب التكلم لمدة 40 دقيقة.

أصبحت نادية خبيرة تكلم من الدرجة الأولى، كما صار فؤاد خبيرًا في الإعاقة السمعية، فلم يترك مصدرًا علميًا يتحدث عنه إلا وقرأه، لكن المعجزة المذهلة هي أن مريم قد أقبلت على التعلم بنهم، وانتقلت من المعهد إلى روضة الأطفال؛ لتواصل تعلمها وسط صعاب كثيرة واجهتها تمثل بعضها في الاحتجاج المتكرر لبعض أولياء الأمور المسكونين بنفس الثقافة ونفس المعتقدات التي أخّرت مجتمعاتنا العربية، حيث كانوا يخشون على أبنائهم من وجود مريم بينهم، معتقدين أن التخلف العقلي يمكن أن ينتقل بالعدوى شأن الأنفلونزا.

وتكلّمت مريم

لم تمض سنوات قليلة حتى تكلمت مريم، واكتسب أبواها خبرة إنسانية لا تقدر بثمن، لم تتكلم مريم فقط، ولكنها أحبت الكلام، وكأنها تريد تعويض ما فاتها منه، وأجادت بلاغة الحوار، وفرح الأبوان ولم يبقى أمامهما إلا العودة إلى الوطن البحرين.

وعادت الأسرة المظفرة بأفرادها الأربعة وسط ذهول الجميع، وخجلهم من بلاغة مريم وألمعيتها التي تجاوزت سنها، وبسبب مواقفهم المحبطة سابقًا.

وكان الأبوان يشعران بالفخر لانتصار العلم على الجهل والتخلف، ولسان حالهما ينطق بعبارة المهاتما غاندي "سوف يتجاهلونك، ثم يضحكون عليك، ثم يحاربونك ثم تنتصر".

هذا هو ما حدث بالضبط مع فؤاد ونادية، فالمجتمع ذاته كان عقبة، وكان من عوامل الإحباط التي واجهت الوالدان الشابان في رحلتهما الشاقة.

أسئلة مهمة حول المجتمع

وبعد هذه الرحلة العجيبة، وبعد أن رجّحت كفة فؤاد ونادية على كفة المجتمع، كان ولابد أن يسأل الوالدان لأنفسهما بعض الأسئلة حول المجتمع الذي يعيشان فيه، فهل يتركان هذا المجتمع على جهله المتأصل حول الإعاقة السمعية أو أي إعاقة أخرى؟ وهل من العدل ألا يعرف المجتمع بأسره المعجزة المريمية؟ أم هل من العدل أن يتركوا الأسر على جهلها مثل ما عاشاه عندما لم يتمكنا من تشخيص هذا النوع الخطير من الإعاقة، والذي ينبغي أن يملك كل الأزواج السبل والأدوات وما يمكنهم من القيام به؟ وهل من العدل أن يحرم المعاق سمعيًا من التعليم فيتحطم مستقبله؟

وكانت الإجابة الوحيدة لهذه الأسئلة هي أن يقوما بنقل تفاصيل هذه التجربة الإنسانية التي لا تقل عن أي اختراع من الاختراعات التي تسعد البشرية وتخرجها من الظلام؛ لكي يستفيد هذا المجتمع،وكأن الله قد خصهما بهذه التجربة ليكونا عونًا للناس من بعدهم في مواجهة مثل هذه البلايا.

مركز الأمير سلطان لتنمية النطق والسمع

بدأت مريم مراحل تعليمها بالالتحاق بالمدرسة الابتدائية بين أقرانها على أرض الوطن، وبدأ فؤاد يطرح على الجمعية البحرينية لتنمية الطفولة مشروع مركز لتنمية النطق والسمع، وهو المركز الذي يحمل الآن اسم "الأمير سلطان لتنمية النطق والسمع"، والذي كان بمثابة ضربة قاضية للمعتقدات البالية حول الإعاقة السمعية.

وتخرّج من المركز حتى الآن حوالي تسعون طفلاً، كلهم أتمّوا تعليمهم مثلما أتمّت مريم تعليمها وتزوجت، وأنجبت "ياسمين".

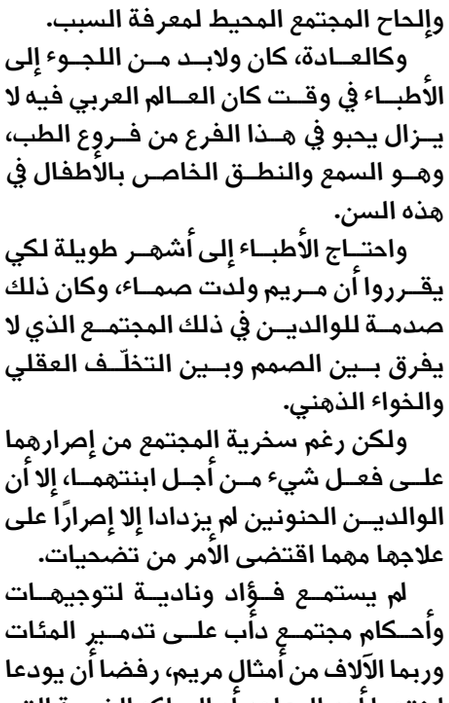

في الختام

هذا الكتاب الذي بين أيدينا "حبيبتي ابنتي سميتها مريم"، هو خلاصة تجربة إنسانية نادرة، عبّر فيه شهاب بأسلوب أدبي رفيع المستوى، في تعابيره ومفرداته، وعن تفاصيل هذه التجربة التي أثمرت في النهاية بنقلة اجتماعية وثقافية للمجتمع الذي نعيش فيه، في مجال في غاية الأهمية، وهو مجال الإعاقة السمعية، وما يترتب عليها من إعاقات أخرى وضياع تام.

هذا الكتاب هو بمثابة وثيقة بحرينية وعربية لابد أن يقتنيها ويقرأها كل إنسان، وليس فقط الأزواج أو المقبلين على الزواج، فهو خلاصة جاهزة ودرسًا رائعًا ومؤثرًا في التضحية، بعد أن أثبت فؤاد وزوجته نادية أنهما كانا كنخلتين، يرميهم الناس بالحجارة فيسقطون لهم خير الثمار.